عجائب الدنيا ليست سبعاً فقط

ميسور .. مدينة القصور والمعابد

● يجب أن تخلع نعليك قبل الاقتراب من بوابة المعبد إنه مكان مقدس عند فئة من الهنود ويجب أن تحترمه . وإذا أردت زيارته فعليك أن تفعل ما يفعله أصحاب المعبد وإلا ستبقى خارج الأسوار العتيقة بانتظار رفاقك . لقد كان من الغباء إلا نفعل فالهند ليس بلداً يمكن أن تزوره كل عام والوصول إلى هذا المكان يحتاج إلى الكثير من الجهد والمال .

دخلنا من بوابة حجرية متوسطة الحجم لنجد عظمة الهند بكل ما تحتويه من تاريخ وثقافة وفنون وديانات وأنشطة وآلهة بالانتظار، لقد تجسدت في معبد كيسفا ورغم أنه يبدو صغير الحجم مقارنة بمعابد أخرى تزخر بها آسيا والهند بشكل خاص إلا أن بناة المعبد نجحوا في استيعاب كل أنشطة المنطقة في هذا المعبد .

الهند/ معين النجري

لقد جمعوا عصارة خبراتهم في النحت والنقش والتخطيط والرسم والعمارة وسكبوها في هذه المنطقة فكان معبد كيسفا، إذ يصعب عليك أن تجد حجرة واحدة من مكوناته خالية من النحت أو الرسم بل إن معظم مكوناته الخارجية هي عبارة عن مجموعة من التماثيل الحجرية لحيوانات وأناس وآلهة .

معبد الآلهة الثلاثة

ماتزال رائحة العودة والبخور عالقة في المكان ربما أن هناك من يزال يقدمها للمكان حتى اليوم إنه من الصعب على معبد يحتوي على عدد كبير من الفتحات الاحتفاظ بالروائح لأوقات طويلة لذلك كان الأرجح أن هناك من يزال يؤمن بها خاصة وهو يحوي ثلاث آلهة هي: فجتبو، وكريشنا وثالث لم أسجل اسمها ولم أتذكره وأعتقد من خلال التقسيم أن فيجتبو وهو الإله الرئيسي لأنه يحتل صدارة المعبد وتحيط به مجموعة من التماثيل الصغيرة بينما تقع الآلهة الأخرى في غرف على جانبي المعبد.. وتفصل بينها وبين الزوار أبواب حديدية تسمح بالنظر فقط . المعبد من الداخل كما هو من الخارج مليء بالنقوش والتماثيل والأعمدة المنحوتة بأشكال جمالية تحمل عبراً ورسائل لم نفهمها نحن .. ربما أبناء الأرض هم فقط من يستطيعوا ذلك .

الملاحظ في معبد كيسفا أنه بني من نوعية واحدة من الأحجار السوداء ابتداء بالبوابة الخارجية والصروح والسلالم والأرضيات والتماثيل والآلهة والسقوف . ألم أقل إن عظمة الهند تجسدت بهذه الصورة كما أن الدهشة لن تكتمل إلا بالطواف حول المعبد والوقوف على الدروس التي يقدمها لزائريه من خلال مجموعة لوحات تحتية لتعلم الزوار فنون القتال والعبادة والرقص والتعامل مع الخيل والجنس وتربية الأطفال وحراثة الأرض .

ربما أراد بناة معبد كيسفا أن لا يجعلوا معبدهم مجرد مكان للعبادات وتقديم القرابين فقط بل أيضاً لتعليم الناس طرق الحياة وتفاصيل التعامل مع مكونات حياتهم اليومية ابتداء بما يدور في غرف النوم المغلقة ومن ثم البيت والحقول الزراعية والغابات المنتشرة في كل مكان .

المعبد يتوسط صرح واسع وتحيط به مجموعة كبيرة من الغرف الصغيرة اللصيقة بالسور من الداخل وكأنها غرف أعدت لموظفي المعبد أو ربما للطلاب والكهنة الصغار تحيط بالمعبد مجموعة من الأسر الهندية التي يبدو عليها الفقر وهناك عدد من الأطفال يقفون على الطريق المؤدية إليها يحاولون بيع صور المعبد ومنتجات محلية .

بني معبد كيسفا عام١٢٦٨ م ليصبح المكان الرئيسي، لإقامة الطقوس الدينية حتى جاء الإسلام إلى هذه المنطقة ونجح المسلمون في نشر الدين الإسلامي بشكل جيد . وبانتشار الإسلام على أيدي أبناء الهند في منطقة ميسور هجر معبد كيسفا وأصبح مزارا للسياح ... لكن يبدو أن هناك من لايزال يعتقد بآلهته وربما يقيم أيضاً الطقوس .

القصر الفندق

خرجنا من معبد كيسفا عند الساعة الواحدة ظهرا عبر طريق إسفلتي ضيق يخترق حقول الأرز وغابات جوز الهند وأشجار أخرى لم أشاهدها إلا في الهند وبعد حوالي نصف ساعة من السباحة وسط بساط أخضر ومياه وفيرة وصلنا إلى قصر يشبه إلى حد كبير قصور لحج وعدن وحضرموت لكنه أكبر حجما وعند بوابته تصطف مجموعة من الفتيات بعقود الفل وامرأة راشدة كانت تضع العلامة الحمراء بين عيني كل داخل تقديرا للزيارة.

وفي إحدى قاعات هذا القصر الفسيحة والمزينة باللوحات والنقوش والمجسمات تناول الوفد وجبة الغداء ومن ثم بدأنا بالتجوال في أنحائه لنكتشف أن هذا القصر الفسيح قد تحول إلى فندق يستقبل النزلاء ويهيئ لهم أجواء شبيهة بالحياة التي عاشها الملوك ممن بنو القصر وسط هذه الجنة، لقد كان علينا أن نغادر سريعا فالمفاجأة الكبرى ما تزال بانتظارنا.

قصر ميسور العظيم

قبل أن نترك الحافلات بعد توقفها وقف دليل الرحلة السياحي ليقول لنا إن علينا أن نخلع أحذيتنا في الحافلة وألا نصطحب التلفونات والكاميرات إلى الداخل فالتصوير ممنوع منعا باتا لقد أكد على هذه الجملة أكثر من مرة (التصوير هنا ممنوع منعاً باتا) لا أحد كان يعرف ما قصة خلع الأحذية عند الهنود لكنه قال إن هذه طقوس معمول بها منذ أن بني القصر ولا أحد يستطيع كسرها حتى الوفود الدبلوماسية . ... نحن في الهند بلد العجائب ويجب أن نلغي علامة »!« تماما أثناء تعاملنا مع هذا العالم .

إنه قصر ميسور العظيم الذي يحتل مكانة عظيمة في الهند لولا أنه مهضوم إعلامياً وسياحياً لأسباب نجهلها تماما إنهم يمنعون التصوير داخل القصر وخارجه وهناك حراسة مشددة والعديد من كاميرات المراقبة.

قصر ميسور الشهير بناه الملك المسلم تيبو سلطان وبدا في بنائه عام١٨٩٧ م وانتهى من البناء عام١٩١٢ م مع العلم أن هذه ليست المرة الأولى التي يبنى فيها القصر فقد بني لأول مرة بحسب ما قاله الدليل في بداية القرن الرابع عشر لكنه فقد أهميته عام١٦١٠ م عندما قامت عائلة وديارس بنقل العاصمة من ميسور إلى سريراناجاباتانا ما أدى إلى تدهور القصر ولحقت العديد من الأضرار بمكوناته وقد تم هدمه بعد ذلك عام١٦٣٨ م تم في عام١٧٨٧ م من قبل السلطان تيبو ابن حيدر علي الذي استولى على ميسور عام١٧٦٢ م وخاضت المنطقة حربا رابعة عام١٧٩٩ م وأعيد تشييد قصر ميسور عام١٨٠٣ م عندما عادت عاصمة لكن حريقا هائلاً شب في القصر ودمره عام١٨٩٧ م غير أن الملك السلم تيبو سلطان قام من ساعتها بإعادة بنائه وربما هذه المرة هي الأكثر ضخامة وتوسعة فقد استمر العمال والبناة والنحاتون والرسامون والفنانون في بناء قصر ميسور خمسة عشر عاما أي أنه تم انجازه عام١٩١٢ م ليسكنه آخر ملوك عائلة وديارس التي حكمت المنطقة من عام١٣٩٩ م حتى عام١٩٤٧ م .

القصر من الداخل

لا يستطيع أحد أن يصف القصر من الداخل بشكل منصف يرضي هذا المعلم الإنساني العظيم ويزيد من هذا العجز عدم توثيق ما تمر عليه عين الإنسان من صور عبر آلة تصوير تحتفظ بالتفاصيل . أنه بناء يسلب الألباب ويزرع الدهشة في خلايا جسدك ويصيبك بصدمة حضارية من نوع آخر، ويثبت لزواره أن خيال الحاكي في قصص ألف ليلة وليلة وأساطير الهند أضيق بكثير مما كان يعيشه أبناء هذه الطبقة على أرض الواقع .

لو أن شهرزاد كانت قد زارت قصر ميسور بحلته الأخيرة لم تكن مضطرة لإرهاق أبطالها في أسفارهم التافهة كان يمكنها أن تصف ألف ليلة وليلة في وصف قاعة واحدة من قاعات القصر الكثيرة أو ربما في وصف اللوحات الزيتية والنباتية المرسومة بإتقان على جدران الصالات الواسعة والممرات المانقة .

لا أدري كم حجم الثروة التي صرفها المهراجا على بناء هذا الشيء العظيم لكن بكل تأكيد هي ثروة ضخمة جدا جلبت الأحجار العملاقة وألواح الرخام ونحاتي الهند ورساميها ومهندسيها وفنانيها ليشبعوا غرور الإنسان وطموحه في أن يخلق الجنة على الأرض .

فما يحتويه القص من قباب وأقواس ورخام وردي وأبواب من الفضة وأخرى مطعمة بالذهب والديكورات الرائعة والأزجة الملونة إلا دلالة على أن هذا الرجل كان يتطلع للخلود من خلال قصره الفريد .

فالمتأمل للقبة الرئيسية في القصر والنقش الرخامي للأرضية التي تقع تحت القبة يكتشف مستوى التطابق بين تفاصيلها وتشكيلاتها وحتى ألوانها .

لقد كنا نتبع مرشدنا ونحن في حالة ذهول غير طبيعي وهو يكتفي بشرح الأشياء الرئيسية في القصر ويتنقل بنا من مكان إلى آخر ... من قاعة امبافيلاسا المزينة بالديكورات الرائعة وكان يستخدمها خاصة الملك وتحتوي على نقوش ورسوم مالا يتسع المكان هنا لوصفها إلى قاعة غومبي ثوني التي تحتوي على معرض للدمى التقليدية والحيوانات المحنطة مثل وحيد القرن والأسد والنمر الهندي والفهود والغزلان إلى قاعة كالياناماناتابا المجاورة وهي قاعة الزواج وفيها من الزخارف الطاووسية والزجاجية الملونة ما يعجز عن وصفها .

خالد الذكر

لقد حرص المهراجا على تخليد ذكراه أيضاً من خلال اللوحات التي حملت صورته وعائلته وصورة مع حرسه ومع عامة الناس . لوحات جدارية حملت صور المهراجا في أكثر من موطن وأكثر من موضع وحملت معها رسائل كثيرة يحضر بعض الفنانين فيها رسائلهم الأكاديمية.

عاش المهراجا في قص ميسور يحكم منطقته حتى عام١٩٤٧ م عندما قامت جمهورية الهند وجمعت كل الممالك والكيانات المختلفة ... يقول مرشدنا السياحي أن عائلة المهراجا قد غادرت إلى بريطانيا بعد قيام الجمهورية . وربما مايزال أبناؤه على قيد الحياة .. لكنها لم تغادر عقول الناس وزوار القصر والمعجبين بهذا الصرح الإنساني العظيم .

الانتصار العظيم الذي تحقق في الـ 30من نوفمبر كان مكسبا وطنيا وعربيا في لحظة انكسار ونكسة حزيران.
عبدربه منصور هادي
نائب رئيس الجمهورية
30 نوفمبر 2011 44 العيد الـ44 للاستقلال
أعياد الثورة اليمنية